

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطريق الوحيد والاستراتيجية الرئيسة
في النظام التربوي الديني، (المحاضرة ١٨)

علي رضا بناهيان



PANAHIAN.NET

الزمان: شهر رمضان المبارك عام ١٤٣٤هـ
المكان: مسجد الإمام الصادق (ع) في مدينة طهران
الموضوع: الطريق الوحيد والاستراتيجية الرئيسة
في النظام التربوي الديني، (المحاضرة ١٨)

إليك ملخص الجلسة الثامنة عشر من سلسلة محاضرات سماحة الشيخ بناهيان في موضوع «الطريق الوحيد والاستراتيجية الرئيسة في النظام التربوي الديني» حيث ألقاها في ليالي شهر رمضان المبارك عام ١٤٣٤هـ. في مسجد الإمام الصادق (ع) في مدينة طهران.

لقد خلقنا في سبيل إنتاج القيمة المضافة عبر اجتياز بعض الموانع / يتحقق «جهاد النفس» بالعبور عن النزعات الرخيصة

لقد انتهى حديثنا في هوى النفس إلى أننا قد خلقنا في سبيل إنتاج القيمة المضافة، وهناك موانع في هذا الطريق وهي النزعات التافهة والرخيصة التي تشكّل حجر عثرة في طريقنا هذا، فباجتيازها والكف عنها يفتح الطريق علينا نحو الرقي والكمال. تنطلق الحياة من الاحتياجات القليلة والنازلة بطبيعة الحال، بعد ذلك ومن خلال المرور من هذه الأميال والنزعات غير السامية، يخوض الإنسان شيئاً فشيئاً في معمعة جهاد النفس. إن جهاد النفس تشكّل حركتنا الرئيسة التي لا تنفك عنا في هذه الدنيا مدى الحياة. وحتى أولياء الله معيّنون بجهاد النفس أيضاً.

جهاد النفس هو في الواقع مواجهة «الأنا» التي هي في مقابل «المعبود»

لا ينفك طريق جهاد النفس عن العناء، فلا بد أن نحلّ قضية العناء لأنفسنا بادئ ذي بدء. إن من لوازم جهاد النفس هي أن يتصدّى الله سبحانه لبرمجة عمليّات جهاد النفس. وقد أعدّ الله هذا البرنامج فعلا على مستوى التكليف والتقدير. في سبيل أن تكون قد جاهدت أنانيتك، لا بد أن يكون الله قد أعطاك البرنامج، ولذلك فإن جهاد النفس في الواقع هو مواجهة «الأنا» التي في مقابل «المعبود». لقد خلق الإنسان من أجل لقاء ربّ العالمين، ولا معنى للارتقاء بغير الاتصال بالمعبود. فمن أجل نيل هذا اللقاء لا بد لك من اجتياز الأنا وأهواء النفس. إن أنواع الطاعات وشتى العبادات هي من أجل تضعيف «الأنا». فإن كانت العبادة للأنا غير جائزه، كذلك أصل التديّن يجب أن يكون من أجل الله وفي سبيل تضعيف النفس والأنا. فإن كان التديّن لغير الله وكان من أجل توفير حفنة من الجاه فهو رياء.

في سبيل الارتقاء، لابد أن نعمل على خلاف الأهواء

من أجل السير نحو الرقي والكمال، لابد لنا من العمل على خلاف الأهواء. ومعنى الكمال هنا هو الاستعداد الأكثر والأفضل للقاء الله سبحانه. ففي سبيل لقاء الله، لا يكفينا ترك المشتبهات فحسب، بل لابد من ترك الأنا أيضاً. أما برنامج هذا الطريق فهو التقوى، والحافز لطبي الطريق هو الإيمان بقاء الله عز وجل. لقد قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) [البقرة/٤٥]. الصبر هو نموذج ممتاز لرد فعلنا تجاه المشاكل التقديرية، وأما الصلاة فتمثل نموذجاً بارزاً لتقبل التكليف وامتنال الأوامر. ثم قال سبحانه في تكملة الآية: (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) [المصدر نفسه]. أما من هم الخاشعون؟ لقد أجاب الله عن هذا السؤال في الآية التالية: (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) [البقرة/٤٦].

يبلغ الله أوامره عن طريق خليفة الله

لا يكفي الإيمان والتقوى وحدهما، إذ حتى مع وجودهما لا تزال «الأنا» قائمة على حالها. فقد رغب الله وجود الإنسان من أبعاد معقدة جداً وليس الصبر والصلاة يكفيان للبت في أن الإنسان الصابر والمصلي قد واجه نفسه حقيقة. فمن أجل أن يتضح كم أنك قد سحقت نفسك، يبلغ الله أوامره عن طريق خليفته. فهذا الذي لم يتغلب على نفسه بعد، سوف يحقق على ولي الله. من أبرز مصاديق الحقد على ولي الله، هو ما حدث في عيد الغدير، إذ اعترض الحارث بن النعمان الفهري على رسول الله (ص) بعد أن بلغ ولاية أمير المؤمنين (ع): «لَمَّا كَانَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَ خَطِيباً فَأَوْجَزَ فِي خُطْبَتِهِ ثُمَّ دَعَا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَ فَأَخَذَ بِضَبْعِهِ ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَى بَيَاضَ إِبْطَيْهِمَا ... فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَارِثُ بْنُ النُّعْمَانَ الْفِهْرِيَّ فَرَحَلَ رَاحِلَتَهُ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَيْهَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَ إِذْ ذَاكَ مِمَّكَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْأَبْطَحِ فَأَنَاحَ نَاقَتَهُ ثُمَّ عَقَلَهَا ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ [ص] ... وَإِنَّهُ لَمَغْضَبٌ وَإِنَّهُ لَيَقُولُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مَا قَالَ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ نِقْمَةً فِي أَوْلَانَا وَآيَةً فِي آخِرِنَا ... فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْأَبْطَحِ رَمَاهُ اللَّهُ بِحَجَرٍ مِنَ السَّمَاءِ فَسَقَطَ عَلَى رَأْسِهِ وَخَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ وَسَقَطَ مَيْتاً فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ سَائِلَ سَائِلٍ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ» [تفسير الفرات/ ص ٥٠٤]

إذن لا يصلح الإنسان بالصوم والصلاة فقط، بل لابد أن يطهر قلبه من لوث الحسد والكبر على أمير المؤمنين (ع). فأولئك الذين أسلموا ولكن أبت قلوبهم حب أمير المؤمنين (ع)، فإنهم في الواقع لم يتركوا أُنانيَّتِهِمْ.

تنتهي أقصى مراحل العرفان إلى الولاية

إن موضوع الولاية موضوع عرفاني للغاية. إذ تنتهي أقصى مراحل العرفان إلى الولاية. ومعنى الفناء في الله هو هذه العبارة التي نقرأها في زيارة الجامعة: «بِأَيِّ أَنْتَ وَ أُمِّي وَ نَفْسِي وَ مَالِي وَ وُلْدِي» [تهذيب الأحكام/ج ٦/ص ٦١] يقول الإمام محمد الباقر (ع): «مَامُ الْحَجِّ لِقَاءُ الْإِمَامِ» [الكافي/ج ٤/ص ٥٤٩] و «إِنَّمَا أَمْرَ النَّاسِ أَنْ يَأْتُوا هَذِهِ الْأَحْجَارَ، فَيَطُوفُوا بِهَا، ثُمَّ يَأْتُونَا، فَيُخْرِجُونَا بِوَلَايَتِهِمْ، وَيَعْرِضُوا عَلَيْنَا نَصْرَهُمْ وَ هُوَ قَوْلُ اللَّهِ وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ثُمَّ أَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ إِلَى وَلايَتِنَا» [كافي/ج ٤/ص ٥٤٩] وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ع فِي قَوْلِ اللَّهِ يَحْكِي قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) فَقَالَ ع: «مَا قَالَ إِلَيْهِ يَعْنِي الْبَيْتَ مَا قَالَ إِلَّا إِلَيْهِمْ أَ فَتَرُونَ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ إِيْتَانَ هَذِهِ الْأَحْجَارِ وَ التَّمَسُّحَ بِهَا وَ لَمْ يَفْرَضْ عَلَيْكُمْ إِيْتَانَنَا وَ سُؤَالَنَا وَ حُبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ وَ اللَّهُ مَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ غَيْرَهُ» [تفسير فرات/٢٢٤]

الولاية هي شرط قبول الأعمال

الصلاة التي هي شرط قبول الأعمال، لا تقبل بدون الولاية؛ قَالَ الصَّادِقُ ع «إِنْ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَاتِ وَ عَنِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَ عَنِ الصِّيَامِ الْمَفْرُوضِ وَ عَنِ الْحَجِّ الْمَفْرُوضِ وَ عَنِ وَلايَتِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِنْ أَقْرَبَ وَلايَتِنَا ثُمَّ مَاتَ عَلَيْهَا قُبِلَتْ مِنْهُ صَلَاتُهُ وَ صَوْمُهُ وَ زَكَاتُهُ وَ حَجُّهُ وَ إِنْ لَمْ يُقْرَبَ وَلايَتِنَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ مِنْهُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِ» [أمالي الشيخ الصدوق/٢٥٦]

وقال الإمام الباقر(ع) في رواية أخرى: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْوَلَايَةِ وَ لَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ كَمَا نُودِيَ بِالْوَلَايَةِ» [الكافي/ج ٢/ص ١٨] ما الفائدة في صلاتك وعبادتك إن كنت قد حافظت على أنايتك؟ لقد خَلَّفَ إبليس تاريخاً زاهراً في الصلاة والعبادة المقبولة ولمدة ستة آلاف سنة. حتى وصل به الأمر أن يكلم الله ويكلمه الله، ولكن بعد ما أبي أن يسجد لوليّ الله، أنكر الله إيمانه وقال: (أَبِي وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [البقرة/٣٤]. لماذا يا إلهنا قد أنكرت إيمان إبليس من الأساس؟ ولماذا لم تقل: «وكان ضعيف الإيمان»، بل قلت: (وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)؟!

من لم يتولّ ولي الله فليس بمؤمن

لقد صرّح القرآن بهذه الحقيقة في سورة النساء إذ قال الله سبحانه: (فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) [النساء/٦٥]. إن جهاد النفس من أجل سحق أنايتك، أمّا إنك إن أبقيت أنايتك على قوتها وضخامتها فسوف تقع في مشكلة مع الولاية. قال الإمام الرضا(ع) في رواية سلسلة الذهب المعروفة: «حَدَّثَنِي أَبِي مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ ... عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ع قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي» فَلَمَّا مَرَّتِ الرَّاحِلَةُ نَادَى: «بِشُرُوطِهَا وَ أَنَا مِنْ شُرُوطِهَا» [عيون أخبار الرضا ع/ج ٢/ص ١٣٥]

نكران الذات وسحق «الأنا» في مقابل الله مرهون بالخضوع لولاية ولي الله

لقد خرجنا بهذه النتيجة بعد أن طويينا مقدمات عديدة وهي أن الإنسان وفي سبيل أن يلقي الله عز وجل، لابد أن يخالف نفسه ويجتاز أنايته. إن اجتياز الأهواء والرغبات يشكّل المرحلة الأولى للاستعداد للقاء الله، ولكن أهم خطوة هي الإقلاع عن «الأنا» أمام الله سبحانه، وليس المقصود من الإقلاع عن الأنا هو أن تطيع الله وتمتثل أوامره، بل المقصود هو أن تمتثل أوامر خليفة الله ووليّه. طبعاً قد يتجسّد الخضوع للولاية في مصاديق أخرى. مثل ما إذا كنت مشغولاً في تعقيبات الصلاة، وفي هذه الأثناء دعاك أحد والديك لأمر ما، هنا يقتضي جهاد النفس أن تترك التعقيبات وتلبي له؛ يعني يجب الخضوع لولاية الأب بقدرها ونطاقها ولا بد أن نقدّمها على المستحبات. هذا هو سرّ عمل أويس القرني، فإنه فرط في لقاء النبي الأعظم(ص) امتثالاً لأمر والدته.

امتحان الولاية امتحان مهم وحاسم على المتديّنين

بعد أن انخرط أحد من الناس في سلك المتديّنين، يمتحنه الله ليفحص مدى كبره على ولي الله. وعندما يسقط المتديّنون في الامتحان، يصبحون الدّ الخصام للولاية. فعلى سبيل المثل انظروا إلى قاتل أمير المؤمنين (ع). إن استشهاد أمير المؤمنين (ع) باعتبار الشخص الذي باشر بجريمة قتله، لا يقل أهمية عن ميلاده (ع) في الكعبة. لم يكن «ابن ملجم» إنسانا بلا دين ولا إيمان، بل كان من طبقة المتديّنين. ولكنّه كان قد أضر في قلبه شيئا تجاه الولاية بلا أن يعالجه. كان ابن ملجم ممن اختاره أهل اليمن من زمرة خيارهم وأرسلوه إلى أمير المؤمنين (ع). بعد أن أرسل أمير المؤمنين (ع) كتابا إلى والي اليمن أن أرسل إليّ عشرة من خيار أهل اليمن، قام أهل اليمن بفرز مئة رجل من خيارهم، ثم فرزوا منهم سبعين رجلا، ثم فرزوا من السبعين ثلاثين، وفي النهاية اختاروا منهم عشرة وأرسلوهم إلى أمير المؤمنين (ع)... «فَلَمَّا اتَّوهُ عَ سَلَّمُوا عَلَيْهِ وَ هَنَّتُوهُ بِالْخِلَافَةِ فَردَّ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ وَ رَحَّبَ بِهِمْ فَتَقَدَّمَ ابْنُ مُلْجَمٍ وَ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ قَالَ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَ الْبَدْرُ التَّمَامُ... فَاسْتَحْسَنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَ كَلَامَهُ مِنْ بَيْنِ الْوَفْدِ فَقَالَ لَهُ مَا اسْمُكَ يَا عَلَامُ قَالَ اسْمِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَ ابْنُ مَنْ قَالَ ابْنُ مُلْجَمٍ الْمُرَادِيَّ قَالَ لَهُ أَمُرَادِيَّ أَنْتَ قَالَ نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ عَ إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَ لَا حَوْلَ وَ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ» [بحار الأنوار/ ج ٤٢/ ص ٢٦٠].

أحد طرق سحق الأنا هو ذكر مصيبة سيد الشهداء والبراءة من أعداء أهل البيت (ع)

أحد طرق سحق الأنا هو ذكر مصيبة سيد الشهداء (ع) والبراءة من أعداء أهل البيت (ع). إن مصائب أهل البيت (ع) وسيد الشهداء (ع) من شأنها أن تؤسّر نفس الإنسان ولها أثر مباشر على تضعيف أنانيته. فإن لم يتعالج الإنسان في مجالس عزاء الحسين (ع) وفي حفرة مقتل سيد الشهداء، فلا يبحث عن مكان آخر. وإن لم يبحث على ركبتيه عند استماع مصائب أهل البيت (ع)، فهو ليس بجاث لأوامرهم وفضائلهم وعدلهم.

صلى الله عليك يا أبا عبد الله